

تريد أن تكون غنيا وسعيدا؟ إذن فليكن تفكيرك كله وعملك كله لـ مصر*

قلت لواحد من أصدقائي في اجتماع اشتركت فيه أخيراً إننى سعيد اليوم لأن العرب تعلموا أخيراً كيف يجتمعون فقال لى: تريد أن تقول إن العرب لم يجتمع بعضهم مع بعض قبل ذلك أبداً؟ قلت: بالعكس فإن العرب من أكثر الأمم اجتماعاً ولكنهم هذه المرة اجتمعوا لدراسة موضوعات عامة تهمهم جميعاً وتمسكوا بالوحدة فى أثناء الاتفاق وما أنت ترى أن اجتماعهم فى دمشق أسفر عن نتائج طيبة فمأزوا متفقين على المبادئ والأهداف التى اجتمعوا بسببها.

وفى الماضى ما كانوا يجتمعون إلا ليختلفوا والسبب فيما أعتقد أن القضية اليوم خطيرة، إنها قضية شعب فلسطين ومستقبله فإننا لا نريد أن يضيع هذا الشعب كما كان إسحاق شامير يقول، وشامير كان رجلاً بغيضاً، وهو يعرف أن الإسرائيليين استقروا فى جزء من فلسطين بالعافية وأن الدنيا كلها وقفن إلى جوارهم وأيدتهم، لأنهم زعموا أن أراضى فلسطين أرضهم وأن لهم الحق فى أن يستقروا فيها ولكن السلطان عبد الحميد رفض ذلك وقال إن شعب فلسطين مسئولية الخلافة العثمانية وقال لليهودى هيرور الذى طلب إليه ذلك: كيف تعرض على ذلك وأنت ترى أن فرقتين من مقاتلى الفلسطينيين يحاربون اليوم فى جيوش الدولة العثمانية دفاعاً عن أراضى الدولة العثمانية فى سالونيكى فأجىء أنا وأضحى بشعب فلسطين وأسمح لكم بالاستقرار فى أرضهم وقد عرف الإنجليز ألا أمل لهم فى مساعدة الإسرائيليين فى الاستيلاء على أرض فلسطين مادامت الدولة العثمانية قائمة فلما انهزم العثمانيون فى الحرب العالمية وتقاسم الحلفاء

* نشرت هذه المقالة فى ٢٣ أغسطس ١٩٩٢م

أملكها؟؟ وقعت فلسطين في أيدي الإنجليز باسم الانتداب وتولى حكمها رجل إنجليزي يهودى هو هربرت صموئيل فكان أول ما فعل هو أنه فتح أبواب فلسطين على مصراعها وتدفقوا عليها بالآلوف وفى ذهنهم الاستيلاء على أرض فلسطين وتحويلها إلى وطن يهودى وقد دخلوا تلك الأرض بهذه الفكرة الشريرة ودخلوها مسلحين وكانت فلسطين جزءا من الدولة العثمانية.

ولم يكن أهلها مسالمين، وكانوا لا يخفون نياتهم السيئة فلما رأى العرب ذلك قرروا حماية الأرض العربية فى فلسطين وهكذا جاءت حرب ١٩٤٨ م وكانت حربا شريرة على كل العرب لأن بلادهم خرجت من الدولة العثمانية ضعيفة وبدون خبرة سياسية وعسكرية وكان من الطبيعى أن يخسروا هذه الحرب، وبعد المفاوضات التى أعقبت تلك الحرب قامت إسرائيل دولة مستقلة لها حكومة وعاصمة هى تل أبيب، ومن ذلك الحين ونحن نعانى من مشكلة إسرائيل لأنها قامت قياما ظالما لشعب فلسطين وهو صاحب الأرض ومالكها القانونى وكانت بريطانيا وكل بلاد غرب أوروبا ظالمة لشعب فلسطين فقد كانوا قد اعتدوا على اليهود بالرأى والسلاح وقد سبق لهم وخاصة ألمانيا أن اعتدوا على اليهود فى بلادهم اعتداء بشعا فأرادوا تعويضهم عما فعلوا بهم على حساب شعب فلسطين ولن استرسل فى تاريخ إسرائيل، ولكن أريد أن أقول لك إن أعظم ما أعان اليهود ونصرهم على العرب كانوا هم العرب أنفسهم فقد عقدوا اجتماعات كثيرة جدا، ولكنهم كانوا يجتمعون وهم مختلفون بعضهم مع بعض وينفض الاجتماع وهم أكثر اختلافا واليهود يكسبون من ذلك فقد نقلوا عاصمتهم من تل أبيب إلى القدس وحاولوا إرغام الدنيا على الاعتراف بذلك، ومن حسن الحظ أن ذلك لم يتم إلى الآن وهذه المرة نرى أن فلسطين والأردن وسوريا ولبنان قد اجتمعوا متفقين فى دمشق ومازال الاتفاق مستمرا إلى اليوم وقد انضمت إليهم مصر وهذا أضعف إسرائيل، وهذا التغير الذى رأيناه أخيرا فى إسرائيل، وانتقال حكومتها من الليكود المتعصبين إلى حزب العمل ورئيسه إسحاق رابين، والميل إلى التفاهم مع العرب يرجع الفضل فيه إلى

اتفاق العرب بعضهم مع بعض ونرجو أن يستمر ذلك حتى يسترجع العرب كل حقوقهم بإذن الله، وتقوم فلسطين دولة مستقلة فى أرضها برغم الخسائر الماضية وهى كثيرة ومحزنة مع الأسف الشديد.

وأنا طول عمرى أشعر أن انتسابى لمصر هو دافعى الأكبر للعمل والحياة فهذا بلد هادئ وذكى ومتحد ويسير فى طريقه مستقيما عادلا دون أن يعتدى على أحد، وقد كثر الاعتداء علينا فى الماضى دون سبب فاعتدى علينا الرومان قبل الإسلام وضموا بلدنا إلى دولتهم، بل هم فرضوا علينا غذاء عاصمتهم روما، وقد كان الرومان شعبا معتديا وقد استولوا على بلادنا بعد نصر غير جميل كسبه يوليوس قيصر على كليوباترا السابعة ملكة مصر ولم تكن كليوباترا ملكة عظيمة ولكنها انتصرت على أخيها وانتزعت عرش مصر لنفسها ودخلت فى حروب كريهة مع الرومان، وقد حاولت أن تستميل إليها يوليوس قيصر وكادت تنجح ولكنها فشلت فى النهاية واضطرت إلى الانتحار ونحن المصريين لا نحبها ولكننا لا نكرها أيضا فقد أضافت إلى التاريخ المصرى قصة امرأة جميلة وجريئة وقد فرض الرومان أنفسهم عليها وحاولت هى أن تحتال على يوليوس قيصر ولكنها لم توفق وانهزمت فى النهاية فى معركة أكتيوم ثم انتحرت وقد روى شكسبير قصتها فى مسرحية تعد من أعظم أعماله الفنية، ولكنه بطبيعة الحال لم يستطع أن يغير شخصيتها، وهو أيضا لم يسئ إليها، فدخلت هذه المرأة التاريخ من بابه الواسع، وأضافت إلى تاريخ مصر صفحات جميلة وعلى الرغم من فشلها وهزيمتها فقد أصبحت بفضل هذا الشاعر العظيم واحدة من زعيمات التاريخ العالمى ونسائه الجميلات.

وأرجو القارئ ألا يلومنى على هذه السطور التى كتبتها عن كليوباترا على الرغم من أنها لم تتصرف تصرفا مصرى ولكنها ربطت اسمها بتاريخ مصر فى الفكر العالمى وأصبح حالها كحالى، فأنا أحب مصر حبا عظيما وأعيش لها ومنها وعندما كنت أدرس فى أوربا كانت أمامى فرص كثيرة

لكى آخذ الجنسية الفرنسية أو الألمانية ولكنى رفضت هذه الفرص كلها لأننى أشعر أننى لو فقد اتصالى بمصر لم أستطع أن أستمع فى عمل بنجاح، وأستطيع أن أقول إن انتسابى لمصر جزء من شخصيتى فهى كريمة برغم كل شىء، وتصور أننا تركنا منطقة حلايب فى خط حدودنا الجنوبى لكى يستطيع البشارية وهم شعب قبلى مصرى سودانى - أن يتنقلوا بحرية فيجىء السودان اليوم ويزعم أن منطقة حلايب منطقة سودانية، بل إن الأخ البشير رئيس السودان يقول إنهم مستعدون لدخول الحرب مع مصر لكى يؤكدوا ما يسميه بحقهم فى هذه المنطقة وهم لن يكسبوا هذه الحرب أبدا ولكنك تتعجب من عقلية أولئك الناس الذين لا يعرفون الحق ولا يريدون اتباعه ونحن الذين أنشأنا بلد السودان كله، وأنشأنا الخرطوم ومدائن السودان الكبيرة والصغيرة، ونحن أنشأنا مديرية كردفان وجعلنا الأبيض عاصمتها مدينة كبرى، وفى يوم من الأيام كنا نملك كل سواحل البحر الأحمر وموانيه حتى مصوع وزيلع وكل أراضى هرر، وقد أعجبنى هنا السيد الرئيس حسنى مبارك، فهو لم يقف طويلا أمام هذا السخف الذى قاله الرئيس البشير فقال بكل رجولة واختصار إن مصر لا تقبل أى تغيير فى حدودها، وأنها تعرف كيف تدافع عن تلك الحدود، وانتهت هذه المسألة بالنسبة لنا، ويمكن سادة السودان اليوم بدلا من السعى لزيادة علاقات الصداقة مع مصر نجدهم يظهرون نحونا عداء غير مفهوم ويجرون وراء العراق بل وراء إيران مع أنهم يستطيعون أن يكسبوا كسبا عظيما من مصر إذا هم ساروا فى علاقات الصداقة معها، ويكفى أن تذكر ما يكسبه البلدان من قناة جونجلي التى تخترق منطقة السدود وتصب مياهها عظيمة جدا للبلدين فى النيل الأبيض، وعلى الرغم من موقف العداء الذى يقفه الجنرال البشير، فإن مبارك يأمر بالاستمرار فى العمل فى قناة جونجلي لخير البلدين معا.

وهذا هو الذى يعجبنى فى مصر على طول تاريخها، فهى بلد سلام وحضارة دائما وبطبعها وقد تجلى ذلك فى عصرنا هذا تجليا عظيما بعد

انتصار مصر على إسرائيل فى حرب سنة ١٩٧٣ م التى كسرت أنف إسرائيل وأكدت مسيرة مصر فى طريق الإنشاء والسلام، وعندما اعتدى العراق على الكويت واقترب بذلك جريمة بشعة فى حقوق العرب، كانت مصر من أوائل بلاد الدنيا احتجاجا على ذلك العدوان والغضب لما أصاب الكويت، وعندما دعت بلاد الدنيا كلها وفى مقدمتها الولايات المتحدة إلى ضرورة تحرير الكويت بالسلاح، كانت مصر من أوائل الدول دخولا فى المعركة وقد أرسلت فرقا من جيشها للحرب هناك لتحرير الكويت من عدوان العراق.

وحاربت هذه القوات على أرض الكويت حربا مجيدة وانتصرت نصرا عظيما، ولكن مصر لم تسرف فى الكلام عن هذا النصر، بل سحبت قواتها إلى مصر بعد عودة الكويت إلى الاستقلال وها أنت ذا ترى مصر اليوم تقود العالم العربى وتسير فى صمت فى طريق السلام، ومن حسن الحظ أن القائمين بالأمور العسكرية فى بلادنا فى غاية المهارة والذكاء، وقد نهضوا بالصناعات العسكرية نهضة عظيمة، وربما كنا البلد العربى أو الإفريقى الوحيد الذى دخل معركة الصناعات العسكرية بنجاح، ولكن نيتنا سليمة جدا، فنحن نضع أسلحة ممتازة ونبيع منها ما لا نحتاج إليه إلى بلاد الدنيا كلها، وهذه هى مصر التى أحبها ويجرى حبها فى قلبى.

ومصر ليست بلدى فحسب بل هى أيضا مثلى الأعلى فى الحياة فأنا رجل أعمل كثيرا جدا ولكنى أخدم مصر أكثر مما أخدم نفسى، فأنا أعرف مصر معرفة جيدة جدا وجغرافيتها بين عيني دائما، وفى بلادنا اليوم ربما إحدى عشرة جامعة كلها تخدم مصر والعرب جميعا وكل أفريقية، والأساتذة وأعضاء التدريس فى كل هذه الجامعات يعملون بذكاء واجتهاد، ويخترعون أشياء كثيرة فى كل علم تقريبا، والمؤتمرات العلمية فى بلادنا كثيرة جدا، ولا يكاد يمضى يوم إلا ويعقد فى مصر مؤتمر علمى عظيم يكشف للدنيا كلها خيرا كثيرا.

وقد تغير العالم كله اليوم، وكذلك تغيرت مصر، وهذا هو الذى أريد أن أضعه فى ذهن القارئ، فإن تغير الدنيا فى عصرنا غريب جدا، وما كان

يخطر ببال أحد أن يختفى العالم الشيوعي كما حدث عندما جاء ميخائيل جورباتشوف؟ وهل يتصور الإنسان أن العالم الذى كان عالما شيوعيا ويحمل اليوم اسما إنجليزيا هو الكومان ويلث؟.

والطريف أن المؤتمرات التى تعقد فى مصر اليوم ليست مجرد اجتماعات للكلام كما كان الحال فى الماضى، بل هى اجتماعات علمية تضم عددا من الخبراء لحل مشاكل قومية، وقد حضرت فى الإسكندرية أخيرا مؤتمرا لمعالجة مشاكل التمريض، والتمريض مهم جدا بالنسبة لمهنة العلاج الطبى، وقد أعجبتنى حلقات ذلك المؤتمر التى عقدت لعلاج مشاكل التمريض والقانون، وقد رأس الاجتماع مدير جامعة الإسكندرية وأعجبنى منه أنه قال فى الخطبة التى ألقاها فى افتتاحه للمؤتمر وقال فيها إن الرسالة النبيلة التى أنشئ من أجلها المعهد العالى للتمريض فى الإسكندرية هى تخريج دفعات متوالية من مشرفات التمريض على مستوى رفيع يسهم بدور رئيسى فى مجالات الرعاية الصحية، وأنا من زمن طويل أحلم بذلك لأن التمريض لم يعجبنى فى المرات التى زرت فيها المستشفيات، وقد أعجبتنى جدية ذلك المؤتمر وحرص رجاله على اقتراح العلاجات للمشاكل المتعلقة بالدراسة فى المعهد، وقد استوقفت نظرى جدية الأعضاء فى علاج مشاكل معهد التمريض التابع لكلية الطب فى الإسكندرية وكلامهم عن إعداد كوادره العلمية لكى يصبح كلية مستقلة بنفسها وغير خاضعة لكلية الطب، وأحسست وأنا أشهد هذا المؤتمر بجدية أعضاء المؤتمر فى المناقشات. وهذا مثل من الجدية التى يمتاز بها العمل فى مصر اليوم. ومصر فى حاجة إلى الجدية فى علاج كل مشاكلها لأن هذه هى روح العصر وخاصة بعد أن دخل الكمبيوتر فى حياتنا واشترك فى كل شىء فى هذا العصر.

ونحن عندما نتكلم عن زيادة السكان فى بلادنا، ننسى أن زيادة السكان مشكلة عالمية يعالجها العالم كله، حتى فى البلاد التى كانت مشهورة فى الماضى بأنها تراعى زيادة السكان مثل إنجلترا وألمانيا وأمريكا وقد كنا فى

الماضى نعتقد أننا لن نستطيع السير فى طريق هذه الأمم خاصة وأن مصاريف الناس زادت زيادة كبيرة فى عصرنا هذا. وقد بلغنى أن بنك ناصر الاجتماعى قرر صرف ١٧ مليون جنيه قروضا اجتماعية للأباء واولياء الأمور العاملين بالحكومة والهيئات والشركات والقطاع الخاص لأن الأسعار زادت زيادة كبيرة ولا تمكن زيادة مرتبات أولياء الأمور بنسبة تتعادل مع الغلاء، وقد زرت أخيرا مدينة العاشر من رمضان ومن أكثر ما أعجبنى فيها أن المبالغ التى ستصرف لأولياء الأمور محترمة جدا فهى ٧٥ جنيهها لمن يعول ولدا واحدا ومائة جنيه لمن يعول ولدين ١٢٥ جنيهها لمن يعول ثلاثة أولاد.

ولكن الذى لم يعجبنى هو حرص الحكومة على إرضاء الطلاب، ففى كل يوم تنشر الصحف شكاوى من الطلاب وتعليقات من المسؤولين فى الحكومة فى أنهم سينظرون فى هذه الشكاوى، وفى أيامنا لم يكن أحد منا يفكر فى نشر شكوى من أى امتحان فى الصحف لأن الحكومة كانت صاحبة الحق الأعلى وكنا نحن نعتزف للحكومة بذلك وكنا نجتهد فى أن ننجح فى الامتحانات ونحصل على درجات كبيرة دون شكوى لأن الدراسة موضوع جاد جدا ونحن كنا نحرص على النجاح فى الامتحانات وتحصل على درجات عالية مهما كانت صعوبة الامتحانات. أما الشكاوى من الامتحانات فتدل على جرأة الطلاب أو سوء نوعهم، وأسوأ من ذلك أن الحكومة اليوم تخاف من الطلاب وتعلن فى الصحف والراديو وأنها ستنظر فى شكوى الطلاب، وهى تنظر فيها فعلا وتصدر التعليمات للمدرسين والمصححين بالتساهل فى التصحيح، وهذا أمر سيئ جدا، لأن المدرسين أو المفتشين الذين يضعون الامتحانات ويصححونها خبراء محترمون ولا يجوز فى أية حالة أن نضعف مراكزهم فى نظر الطلاب: والحقيقة أن كل شيء يضعف فى أيامنا هذه سواء أكان ذلك فى وزارة التعليم أم فى أى وزارة أخرى والحكومات ضعيفة وهى لا تستطيع الثبات أمام مشاكل اليوم ولهذا فقد كنا نبذل جهدا كبيرا جدا فى الاستذكار وندخل الامتحانات فى غاية الثقة فى أنفسنا ولهذا فقد كنا ننتج أقوىاء ونتولى مسئولياتنا بعد ذلك فى غاية الثقة فى النفس.

وأذكر أنني بعد أن حصلت على الدكتوراه من جامعة زيورخ عملت فى معهد تابع للجامعة يسمى معهد الدراسات الخارجية وكنت أعمل هناك باجتهاد شديد جدا وكنت إذ ذاك أراقب العملية التعليمية فى سويسرا بغاية العناية ولا أذكر أنى قرأت يوما فى صحيفة شكوى من الطلاب من الامتحانات وقد عملت فى هذا المعهد سنتين وقد أفدت من العمل فيه قدر ما أفدت فى الاستعداد للدكتوراه وقد تعلمت أشياء كثيرة جدا فى أثناء دراستى فى أوروبا. ولكن الدرس الأكبر والأعظم تعلمته فى إنجلترا فقد وجدت أولئك الناس يعملون ويعيشون شعباً واحداً فكلهم - وربما دون شعور منهم يعملون لإنجلترا. أو قل يعملون كإنجليز حقا إن لكل منهم مشاغله ومسئوليته ولكن المشاغل الكبرى لكل إنجليزى هى إنجلترا نفسها والروح التى يعملون بها والشىء الذى أعجبت به فعلا هو أن هذا الشعور عميق فيهم كأنه غريزى فيهم وإنجلترا ترد عليهم هذا الإخلاص ومن هنا ترى أن العمل دائما جماعى فى إنجلترا وكل إنسان يحرص على أن يقوم بنصيبه فى المسئولية عن إنجلترا التى تسمى أيضا بريطانيا إذا حسبت حساب اسكتلندا وشمال أيرلندا وقد كان العداء شديدا بيننا وبين الإنجليز فى ذلك الحين بسبب الاحتلال ولكن صدقتى أننى أحسست أحيانا بشىء من الإعجاب بإنجلترا.

وهذا هو الذى أريده منك بالنسبة لمصر، حقا إننى أعرف أن الغالبية العظمى من المصريين مصريون بالروح وألا شىء فى الدنيا يعدل مصر عندهم ولكن الذى أريد أن أضيفه هنا هو أن يكون العمل مصريا لأن مصر بلد عظيم فعلا، ومهما تعطيها فهى ترده إليك مضاعفا وفى صورة أجمل وفى السنوات الأولى لتخرجى فى الجامعة كنا نجاهد فى سبيل مصر وكانت الأحزاب كثيرة وكنا نقول إن الحزب الفلانى مثلا لا يخدم مصر وإنما يخدم السراى، أو إنه حزب الباشوات لا يخدم إلا الباشوات، ولكن عند اتصالى بأولئك الناس كنت أجدهم لا يقلون مصرية عنى وبعضهم كان يقدم

لمصر خدمات أعظم بكثير مما كنت أقدمه أنا، فأنا كنت أقدم الإخلاص لكن واحدا من هؤلاء الرجال كان يتاجر في اللحوم وكان معظم تجارته مع إنجلترا وكنا نحن بجهلنا لهذا الرجل نتهمه بالخيانة ونقول إنه إنجليزي، ولكن عندما اتصلت به وناقشته وجدت أنه لا يقل حبا لمصر عنى وعن أى واحد من الزعماء الذين كنا نخلص لهم ونهتف بأسمائهم فى المظاهرات، ولا أنسى أبدا أنه قال لى مرة: نحن يا بنى عندنا أرض واسعة ونحن نربى فيها بقرا وجاموسا وننتج لحما كثيرا فماذا تريد منى أن أعمل بهذا اللحم؟ أفرقه على الفقراء؟ إننى لن أنجو فى هذه الحالة من الإفلاس. إننى أبيع إنتاجى من اللحم للإنجليز وأكسب الألوف، ويعمل معى فى مزارعى ومصانعى كثيرون جدا من الشباب مثلك وكلهم سعداء، أليس هذا أحسن من ترك الأرض خالية والجري وراء الباشوات الذين تخدمهم أنت؟ إننى يا بنى أكثر مصرية منكم جميعا، فهل تفهم ذلك؟.